

صبا عَناب*

"المؤقتية الدائمة" في عمّان:

هجران وسط المدينة حتى بالعودة إليه

يقرأ هذا التحقيق تطور وسط عمّان وارتباطه بالمدينة عبر مراحل تاريخية، والتحقيق يبدأ من مكان عام هو الساحة الهاشمية في وسط عمّان، وصولاً إلى منطقة العبدلي، وعودة إلى الوسط مرة جديدة في محاولة استقراء تاريخية لجوانب من حركة المدينة انعكست عليها تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية رئيسية. ويناقد التحقيق وسط عمّان الذي يسمى "وسط البلد" كانعكاس للسياسة والمجتمع في البلد وهويته في مراحل متعددة أثرت في تشكيلها. ويحمل التحقيق تساؤلات مثل: لماذا ينقطع وسط عمّان عن محيطه فيُهجّر، ولماذا يجسّد هذا الوسط انفصال عمّان إلى "شرقية" و"غربية"، ولماذا يفقد الوسط دوره الجامع وألفة حركة الناس المحيطين به؟ كما تلتفت كاتبة التحقيق إلى تأثير عامل "المؤقتية الدائم" في الطريقة التي تعاش فيها التجربة المدنية.

خطاباً مختلفاً عن الآخر في أوقات متنوعة. هي - الساحة - في نظر كثير من المعماريين والمخططين المدنيين ليست مثلاً ناجحاً للمكان "العام" بالمعنى العريض للكلمة، أو بالمعنى المثالي أو المفاهيمي للفضاء العام وما يُعوّل عليه وما تتوقّعه منه، وخصوصاً أن الخذلان أصبح "متلازمة" للأماكن العامة بشكل جوهري... ونشهد انحساراً لهذا الخذلان أحياناً في حالات استعادة هذه الأماكن شعبياً، أو من طرف الناس.

وبالعودة إلى الساحة الهاشمية، فإن الأسباب لهذا التقويم تتعدّد، منها فراغية

ساحة فارغة في وسط عمّان

أتوقف عند الساحة الهاشمية - بوعي أو من دون وعي - أفكر أن موقعها غير ملائم! فهي توطّر وسط عمّان القديم، أو بالأحرى تختمه، وإذا وقفت فيها ترى جبل القلعة وامتداده - جبل القصور - أمامك، وعلى يمينك موقف باصات رغدان، والمدرج الروماني على يسارك. أفكر... ما هذا الهدر؟ ثلاثة أماكن عامة على الخط نفسه وليس بينها أي انسجام... ربما قليل من الانسجام. أعتقد أن لكل منها طريقة في طرح نفسه على "العامة"... مثل أو لا يزال يمثل

* فنانة ومعمارية فلسطينية - أردنية.

والهندسية تتعلق بعلاقتها مع المحيط من ناحية فراغية، أو بظروف نشأتها وأسبابها. لكنني كثيراً ما شعرت بأن هناك شيئاً آخر لملاحظته غير كونها ساحة فاشلة فراغياً، إذ شكلت الساحة الهاشمية أهمية كبيرة لكثيرين ممن كبروا في عمّان في ثمانينيات القرن الماضي، وكانت جزءاً مهماً من أيام الجمعة والأعياد في حياتهم كما ينقلون من الذاكرة الآن ويعيدون بناء الأماكن وإنشاءها مراراً وتكراراً في المخيلة، بانتقائيتها ومنظورها الفردي إلى الأمور.

الساحة غالباً ما تكون فارغة، ربما لمساحتها الكبيرة؟ مساحات من البلاط الأبيض تضربها الشمس بقسوة في صخب وسط المدينة، وهي مؤطرة بشوارع سريع يأخذك إلى طرف المدينة الشرقي، أو بالأحرى إلى خارج المدينة. ماتت الساحة تماماً في سنة ٢٠٠٣، في فترة انتقال موقف باصات رعدان الملاصق لها عبر شارع الجيش إلى المحطة، أي إلى الأطراف

الشرقية من المدينة تقريباً عند محطة خط الحجاز. انتقل موقف الباصات "مؤقتاً" لتحديثه ضمن مخطط شمولي لإعادة إحياء التراث والسياحة في وسط عمان بتعاون بين أمانة عمّان الكبرى (البلدية) والوكالة اليابانية للتعاون الدولي^١. ويتضمن هذا المشروع تحسين طريق المشاة على الخط الواصل بين متحف الأردن في مجمع رأس العين (غربي وسط البلد)، والساحة الهاشمية مروراً بالمسجد الحسيني. كما يتضمن مشاريع صغيرة مثل تحسين الأدرج الواصلة بين الجبال المحيطة والمحطات المشرفة على البلد، فضلاً عن إعادة تصميم موقف رعدان ليصبح موقفاً عصرياً مع مطاعم وأسواق تتلاءم مع خطة وضع عمّان على الخريطة السياحية. انتقل الموقف كما ذكرنا إلى المحطة "مؤقتاً" كما أكد المسؤولون بأمانة عمّان الكبرى لأصحاب الأكشاك والمحلات والسائقين في الموقف القديم، وهناك بستان

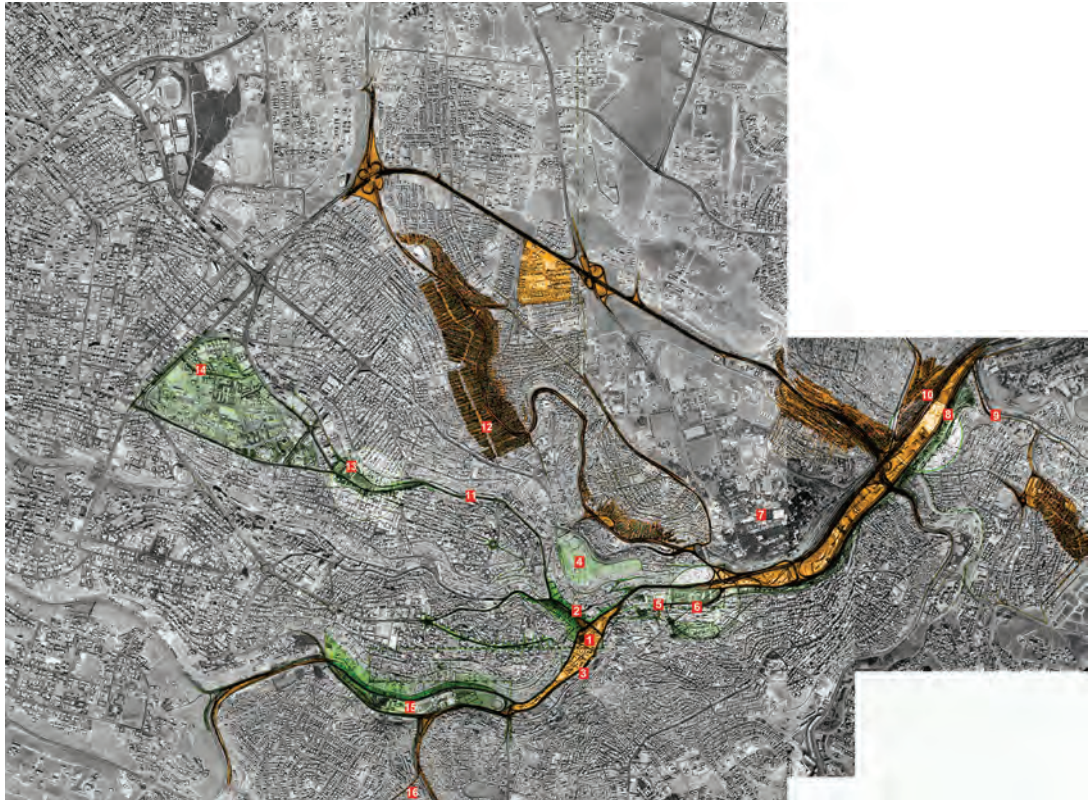


صورة جوية للساحة الهاشمية والمدرج الروماني في سنة ٢٠٠٠. المصدر: المركز الجغرافي الملكي الأردني

بسفوحه القاسية الممتدة، يسمح للون الأخضر بأن ينتشر بين الفراغات غير المبنية، والطريق السريع، والمكعبات الخرسانية...

الفجوة الكبيرة بين السكن والحركة ظاهرة بوضوح، ونزع الأماكن ينكشف في تفصيل صغير مثل نقل موقف الباصات، الأمر الذي يدفعك إلى أن تربطه بصورة وخريطة أكبرين. وهذه القراءة تتبع أسئلة عن جوانب محددة، من دون أن تقلل من أهمية قراءات أخرى لموضوع يحتمل رؤى متعددة.

عُطي بالأسفلت بين شارع الجيش وشارع الملك عبدالله الأول، مشرفاً من جهة على مخيم المحطة^٢، ومن جهة أخرى على جبل النصر... انتقل الموقف، وبانتقاله تغيرت حركة الناس اليومية وعلاقتهم بوسط البلد بطريقة مباشرة وتكشفت ملامح مختلفة للمكان. هذا الطرف من المدينة يجبرك على محاولة استقراء الماضي عبر الواقع والحاضر، كأنه يجب أن نخرج من عمان كي نراها ونقرأها بوضوح. وهذا الطرف الذي يشبه الريف،



خريطة توضح المواقع المتعددة المتناولة في هذه الدراسة:

- ١- المسجد العمري (الحسيني)؛ ٢- ساحة فيصل؛ ٣- سقف السيل؛ ٤- جبل القلعة؛ ٥- المدرج الروماني والساحة الهاشمية؛
- ٦- موقف رغدان؛ ٧- قصر رغدان؛ ٨- موقف المحطة؛ ٩- جبل النصر؛ ١٠- مخيم المحطة؛ ١١- شارع السلط؛ ١٢- مخيم الحسين؛ ١٣- موقف العبدلي؛ ١٤- مشروع العبدلي (وسط المدينة الجديد)؛ ١٥- رأس العين - أمانة عمان الكبرى؛ ١٦- إلى مخيم الوحدات.

في الطريقة التي "يُروّض" فيها الأفراد تجربتهم داخل المدينة، بحيث يجعلوها تنحصر حول حاجاتهم الأساسية في السكن، علاوة على جعل مسار حركتهم مقيداً بحدود الضم والإقصاء / الاستثناء المفروضة.

ومع هذا التضخم كله نشأت سياسات محلية لتسهيل السوق الاستثمارية، وهي تستمد إلهامها من مثيلاتها من المدن في المنطقة - دول الخليج تحديداً - بحيث تم خلق منصّة استثمارية لإعادة صوغ "مدنية" عمّان.

مشاريع عقارية ضخمة، مراكز تجارية، مجتمعات مسوّرة وأبراج سكنية ومكتبية، كلها صور مستوردة ومفروضة على هيكل قائم، مروجة نمطاً استهلاكياً كرمز لحياة المدينة المعاصرة، بحيث يتم تحويل المدينة إلى بضاعة سواء من خلال خطط لإعادة إحياء مراكز معينة في المدينة ذات دلالات تراثية، أو ذات قيمة خاصة لغايات سياحية يتم من خلالها استبدال المستخدم الأصلي لتأطير المكان بإطار من "النوستالجيا" يجمد الحياة اليومية، أو من خلال خلق مراكز جديدة على أطراف المدينة اقتراحاً لنمو جديد، أو تهجير جديد! وهذه النظرة التعددية إلى المراكز تزيل صلات وعلاقات مع المكان: علاقات مختزلة أو ظاهرة، وتقوم ببناء أو فرض غيرها محوّلة المدينة إلى حقل من الفرص. وفي الحقيقة، فإن الهدف من هذه الورقة ليس نقد سياسات التنمية الحضرية وما تنتجه من إقصاء وترحيل لأنها نتيجة "طبيعية" لتراكم رأس المال، لكن في عمّان يتّضح بُعد سياسي بامتياز في هذه السياسات التنموية في محاولاتها طمس تاريخ معين في حالات متعددة من "استرجاع الأماكن" بعد هجرانها.

إنها لحقيقة أن المنظومة الحضرية في المدن لم تعد قادرة على احتواء الآمال الفردية والتجربة الجمعية. فهذه الآمال أو التوقعات تلاشت أمام التراكم المستمر لرأس المال وفضاءاته - مع ارتباط ذلك بخيارات سلطات المدينة كما سأوضح لاحقاً - حيث تتقلص تجربة الأماكن و"أماكن التجربة" متحوّلة إلى صورة ووعده حياة معاصرة.

سؤال يطرح نفسه: لمن تُبنى المدينة؟ وتوجه مدن المنطقة نحو أنماط معينة وصعبة من العيش تتمحور حول تراكم رأس المال المستمد من قدرات المدن على الاستهلاك على مختلف الصعد، والذي يصور المدينة كميدان من الفرص. ومن الممكن رؤية ذلك بالطريقة التي تُخلق فيها الأسواق الحرة "المنفصلة عن الدولة"، والتي تولّد شكلاً سلعيّاً من الحياة الاجتماعية من خلال المشاريع التنموية الضخمة ومشاريع إعادة التأهيل الحضري، والتي تعتمد طريقة مسقط على الأماكن من فوق، ومسوقة "فكرة" أو نمطاً يتعدى التصميم المعماري لينشر صورة مستوردة من أماكن رأس المال... أماكن عامة "خاصة" تستهدف زبوناً وليس أي مستخدم آخر للمدينة. وبالتدرّج تتحول المدينة إلى تجربة مُسلّعة، صورة غير حقيقية، مُطهّرة ونيوليبرالية تستفز مزيداً من التهميش والترحيل، وتزيد في الفصل الفضائي - الاجتماعي في المدينة.

وفي مدينة مثل عمّان، وهي مدينة تقدم نفسها كواقع أو حالة مؤقتة ودائمة في الوقت نفسه، تعزز هذه المشاريع صدعاً درامياً بين ما هو "حضري" أي مديني وعام، وبين ما هو "داخلي" أي فردي وخاص. ويؤدي عامل المؤقتية هنا دوراً مهماً

التطور التاريخي والسياسي للأماكن

كي نتمكن من فهم فشل هذه الأماكن أو نجاحها في التعبير عن التجربة الجمعية والأمال الفردية، لا بد من محاولة وضعها في سياقها التاريخي والاجتماعي، وفهم نشوئها أكان ذلك عضويًا كحاجة، أو بطريقة مفروضة وموجهة. فمحاولات إسقاط التاريخ على الأماكن سيقودنا إلى فهم مركزية المدن واستيعابها، وخصوصاً المدن التي هي جزء من إنتاج قومية / وطنية معينة، وجزء من صنع دولة وغيرها من مفاهيم صنع السيادة والهيمنة السياسية. في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وبسبب إنشاء خط الحجاز، عادت الحياة إلى عمّان بعد سباتها الطويل، وهو كان من جعل من وجود عمّان على خط الحجاز الواصل بين دمشق الشام والمدينة المنورة طريقة للسيطرة وحفظ الأمن.

وترجع هذه الفكرة إلى أواخر القرن ١٩ عندما ظهرت فكرة ولاية "معمورة الحميدية" وعاصمتها عمّان. وظل هذا الموضوع فكرة، لكنه بقي حاضراً من خلال السياسات المتبعة من طرف السلاطين العثمانيين. فشجّع الشيشان والشركس على الإقامة على طول الخط الاستراتيجي الواصل بين حمص والجولان وعمّان، وذلك لقمع هجمات القبائل البدوية وعصيانها المستمر للحكم العثماني. وكانت قبائل الشابسوغ من أوائل من استوطن عمّان، والتي أخذت من الوادي بمحاذاة السيل والمدرج الروماني مقراً لها، فاستقرت في دهاليز المدرج الروماني والكهوف المحيطة به. وتوالت القبائل الشركسية على عمّان، واتخذت من الوادي والتشكيلات الطبوغرافية المحيطة به مستقراً لها، بحيث سمحت هذه التشكيلات باستيعاب تجمعات متنوعة

لكل منها حدوده. وانتشرت هذه التجمعات بالتدريج بطريقة تفاعلية مع الطبوغرافية من جهة، ومع آثار الشارعين المتعامدين من العهد الروماني Cardo و Decumanus^٢ من جهة أخرى. وقد اتبعت الحضارات المتنوعة هذا التقاطع. ومن المعالم الأساسية التي انتعشت في تلك الفترة وشكلت مركزاً لهذه التجمعات، المسجد العمري الذي كان مقاماً على شارع ال Cardo. ومع إنشاء سكة الحديد وافتتاحها رسمياً في سنة ١٩٠٩، ازدهر المركز حول المسجد لوجوده على تقاطع شارعين إقليميين: شارع السلط والشارع القادم من المحطة. فازدهرت التجارة حوله، وأنشئت الخانات والمقاهي كونه كان المركز الأقرب إلى نقطة الوصول إلى المدينة: المحطة. تركزت الأراضي الزراعية حول السيل وامتدت البيوت على الجبال وتشكلت الأدرج والممرات جراً الطبيعة القاسية للأرض. وبعد إعلان قيام إمارة شرق الأردن في سنة ١٩٢١ كان من الطبيعي للسلطة الجديدة أن تتبع ما كان تأسس في العقود القليلة التي سبقت، فاتخذ الأمير عبدالله داراً عثمانية في مقابل المدرج الروماني كي تكون دار الإمارة، واتخذ من امتداد جبل القلعة الذي سُمي جبل القصور، مقراً للقصر الحكومي الذي بوشر بناؤه في سنة ١٩٢٤ حتى سنة ١٩٢٧، والذي سُمي رغدان. وبالتدريج تحولت المنطقة المحيطة بالمدرج إلى مركز إداري مؤسساتي، وتحول امتدادها عند المحطة إلى مركز عسكري، وتغير اسم المسجد العمري إلى المسجد "الحسيني". ومن الممكن أن يكون مردّ ذلك هو النسبة إلى الشريف الحسين بن علي، أو إلى نسب العائلة الهاشمية. وبصورة عامة فإن هذا كله يصب في استراتيجيات إعلان السلطة الجديدة وتثبيت الحكم.



صورة جوية للاستيطان الأول حول السيل، المدرج الروماني والمسجد العمري في سنة ١٩١٢.
المصدر: المركز الجغرافي الملكي الأردني

الأردنية رسمياً قبل سنة ١٩٤٨، فالوجود الفلسطيني كان كبيراً منذ البداية على جميع المستويات، فضلاً عن العملة الموحدة والإدارة الإنجليزية الواحدة التي تسيطر على البلدين. أمّا على المستوى الشعبي، فالتداخل كان كبيراً، والمدن الفلسطينية والأردنية كانت أشبه بالتوائم، الكرك والخليل، السلط ونابلس، والحال مشابهة في الشمال حول إربد، وذلك عدا التعبيرات عن فكرة العروبة ووحدة المحيط الشامي والشعور العميق بخطر الصهيونية على فلسطين وخطر المشاريع الاستعمارية. وهذا التداخل عبّرت عنه، على سبيل المثال، الاحتجاجات الشعبية التي عمّت سورية احتجاجاً على قرار التقسيم في سنة ١٩٤٧، فشهدت عمّان بدورها احتجاجات

كان الوضع العربي شديد التوتر والتعقيد آنذاك، حتى بعد نهاية الانتداب، فقد ظلت المعاهدات تؤدي دوراً مهماً في تحديد شكل العلاقات بين الدولتين، المنتدبة والمنتدبة، وخصوصاً أن الجيش لم يكن معزباً في ذلك الوقت، علاوة على التطورات السريعة في الساحة الفلسطينية، والتي انعكست مباشرة على الساحة الأردنية. انتهت صيغة الهوية الفلسطينية وكيانيتها بعد سنة ١٩٤٨، إذ جرى اقتسام ما بقي من فلسطين بين الدول العربية المجاورة، فضّمت الضفة الغربية إلى الأردن في إطار المملكة الهاشمية على ضفتي نهر الأردن، بينما ضُم قطاع غزة إلى الحكومة المصرية... لقد وُجدت الحالة أو المعضلة الفلسطينية-

والفنادق والمطاعم، وكانت امتداداً فراغياً لساحة الجامع الحسيني. وفي تلك الفترة - أي أربعينيات القرن الماضي - أُعلن استقلال الأردن، وأُعلنت عمّان عاصمة للمملكة الأردنية الهاشمية. وفي أوائل الخمسينيات انتشرت مبان ذات طبقات متعددة، فنادق وبنوك وأسواق متنوعة مع سيارات النقل في شارع فيصل حيث الموقف الرئيسي أيضاً إلى القدس ودمشق وبيروت.

والجدير بالذكر أن الجامع الحسيني وساحته (التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً من ناحية فراغية وحركية بساحة فيصل) ارتبطا بالحراك الشعبي الذي كان يفيض بالشوارع ليصل إلى ساحة المسجد، وكانت ذروته تصل في يوم الجمعة بعد الخطبة، علاوة على الشاحنات التي كانت تقف عند الساحة لتحمل من يريد التطوع إلى فلسطين.

ومؤتمرات خلال سنتي ١٩٤٧ و١٩٤٨، وشهدت مشاركة أساسية من عشائر شرق أردنية، وقُمعت بقوة، وأنزل غلوب باشاً قوات البادية لمنع التظاهرات أو لقمعها.

لكن كيف عكست هذه التطورات التاريخية السياسية والاجتماعية نفسها على حيّز عمّان؟ يمكن تلمس انعكاس أحداث سياسية على وسط عمّان خطوة خطوة.

تشكّلت نقطة وصول أخرى إلى المدينة، نقطة التفرع من المسجد الحسيني: ساحة فيصل، التي كانت، من جهة، موقعاً لاستعراض الجيش العربي في الثلاثينيات الماضية، كما كانت، من جهة أخرى، ساحة تركزت حولها سيارات الأجرة التي تصل من بلاد الشام المتعددة، والتي عززت بذلك النسيج المتكون وفعلته، فانتشرت المقاهي التي ارتبطت بصعود النشاط الوطني،



الاستيطان الأولى حول السيل في أوائل القرن الماضي.
(الخريطة أصلاً: ١١٠ سم x ٧٠ سم، حبر على ورق، ٢٠١١).

في سنة ١٩٤٩ في إثر النكبة، وقرر المجلس البلدي توسيع حدود بلدية المدينة. نمت عمّان، ولا تزال تنمو بطريقة تفاعلية مع الأحداث المفروضة عليها جرّاء الأوضاع الاقتصادية والسياسية في المنطقة، والتي انعكست وتنعكس على مورفولوجيا المدينة منذ الأعوام الأولى لتشكيلها، ومن خلال "انفجارات" حادة ومفاجئة بالنمو. وتطلبت هذه الحاجات المستعجلة حلولاً اعتباطية سبّبت فوضى في بنية المدينة وهيكلها، وتبعثها جهود لمحاولة إصلاح ما تداعى.

وبهذا تشكلت المدينة بناء على هذه الأفعال التبادلية، ردة فعل وردّ على ردة الفعل، مشكلة واقعاً فضائياً متعدد المراكز، يعيد تغيير موقعه (المركز) باستمرار.

وبالتوازي مع هذه التغيرات الفراغية والسياسية الكبيرة، انتقل مقر القصر الحكومي، أو بالأحرى بُني قصر رابع (بعد بناء قصرين صغيرين على جبل القصور حتى سنة ١٩٥٠). فقد بُني قصر زهران في اتجاه الغرب من وسط البلد، وانتقل مقر رئاسة الحكومة أيضاً كي يكون قريباً منه.

وبهذا يكون المقر الحكومي قد انتقل من وسط البلد وتشكّلت ملامح السيادة في المدينة من جديد.

في مدينة تقوم ببناء نفسها في إطار بناء الدولة لنفسها، فإن كل حكم يأتي بقصر جديد ومقر حكومي جديد، ومسجد على اسم الملك السابق، وساحة عامة وربما متحف. ومع الانتقال الأخير للقصر الملكي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، نتج مركز جديد في أقصى الغرب يتمحور حول أنماط الاستهلاك الجديدة. ومن الممكن أن يكون انتقال مقر الحكم، القصر الملكي، وسيلة لإعلان فترة حكم جديدة وتثبيت لشخص الحاكم الجديد. فإعلان السلطة من جديد هو إعلان لسيادة الدولة وغيرها من أشكال الهيمنة السياسية.

وكان للتطورات الأردنية - الفلسطينية تأثيرها المكاني في وسط عمّان، وبدأت تعكس نفسها على هذا الحيّز. واستمد بدء الحذر الرسمي من المساحات وإعادة تشكيلها إيقاعه من نهوض الحركات الشعبية الأردنية والفلسطينية، المتداخلة، والتي تجسدت في المساحات. وهدمت الجزيرة المطلة على شارع فيصل في محاولة "تجميلية" للمكان، أو في محاولة للسيطرة على تدفق المتظاهرين إلى مكان له رمزية سلطوية.

وبسبب موجات اللجوء المفاجئة والقسرية جرى اختيار مناطق المخيمات بطريقة عشوائية... لكن ليس تماماً! فالمخيمات في عمّان جاءت كامتداد لـ "الاستيطانات" في الوادي والسفوح، مبتعدة عن الوسط: مخيما الوحدات والحسين. وفي وقت لاحق تشكلت المخيمات غير الرسمية كمخيّمي المحطة والنصر.

...أصبحت المدينة شيئاً مختلفاً، بمزاجها واتساعها وحجم القلق والخوف الذي يسيطر عليها، لأن هناك أحداثاً، حين تقع، تجعل الناس يكبرون، بل يهرمون، خلال فترة قصيرة، وربما قياسية.^٥

طرحت عدة دول عربية في الخمسينيات الماضية فكرة إنشاء كيان فلسطيني منفصل من داخل فلسطين، وكان الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم أول من اقترح ذلك، داعياً إلى قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد اعترضت كل من مصر والأردن على ذلك بشدة، وذهب الردّ الأردني الفعلي إلى أبعد من ذلك، إذ مُنح جميع الفلسطينيين المقيمين في المملكة الجنسية والمواطنة الكاملة، بما في ذلك جوازات سفر أردنية عادية، كما عُرضت المواطنة الكاملة على أي فلسطيني لاجئ في البلاد العربية يريد الانتقال إلى الأردن. وتضاعفت مساحة عمّان مرة ونصف مرة

عمّان، فمنها ما أقيم على مداخل - أو مخارج - عمّان الكبرى مثل مخيم البقعة ومخيم ماركا أو "شنلر"، وهناك ستة مخيمات أخرى توزعت بين جرش والحصن شمال الأردن. وباعتبار أن المخيمات هي أحياء سكنية فقيرة وشعبية فقد جذبت أعداداً من العائلات من غير اللاجئين. وفي نهاية العقد السادس تضاعفت مساحة عمّان وعدد سكانها مرة أخرى.

في آذار / مارس ١٩٦٨ وقع حادث ساهم في تفجير سلسلة من التطورات التي كان من شأنها دفع حركة المقاومة والحكومة إلى الاصطدام، وهذا الحدث كان معركة الكرامة. فعلى الرغم من أن التنظيمات الفلسطينية المسلحة والجيش الأردني قاوما معاً الهجوم البري الإسرائيلي، فإن هذه المعركة دشنت نقطة تحول في مسيرة الحركة الفدائية، وفي طبيعة العلاقات الأردنية - الفلسطينية على الصعيد الرسمي.

فمن جهة اكتسب الفدائيون شعبية جماهيرية واسعة، الأمر الذي وقر لهم آلاف المتطوعين الجدد، أمّا من جهة أخرى فقد غابت شعبية الفدائيين الجديدة الدور الرئيسي الذي قام به الجيش الأردني في القتال، وهو ما أدى إلى استياء العديد من الجنود والضباط جزاء اختطاف المقاومة الفلسطينية الرصيد الإعلامي السياسي، في الوقت الذي أعادت المعركة إلى الجيش الثقة بذاته وكونه شريكاً في الصراع ضد إسرائيل.

إن إطلاق فكرة الهوية الفلسطينية المنفصلة من طرف الجماعات الفدائية في معركتها ضد إسرائيل شكّل إرباكاً للنظام السياسي الأردني، لأنها طرحت نفسها بديلاً من الهوية السياسية بين سكان الأردن من

وتناقض إيعاز الملك حسين إلى الحكومات الأردنية بدعم منظمة التحرير الفلسطينية والتعاون الوثيق معها، مع السياسة الأردنية الثابتة منذ سنة ١٩٤٨ بمعارضة أي بنية سياسية فلسطينية متميزة لأن ذلك يشكك في أحقية الحكومة والعرش الأردني في تمثيل الفلسطينيين. فقد كان التنافس واضحاً بين العرش الهاشمي وبين منظمة التحرير على تمثيل فلسطينيي المملكة.

وبدأ الاحتقان يتراكم بالتدريج، وخصوصاً بعد القمع العنيف لتظاهرات منظمة التحرير وأحزاب المعارضة الأردنية في إثر الغارة الإسرائيلية على قرية السموع في الضفة الغربية في سنة ١٩٦٦، فضلاً عن النشاط العسكري المضاد الذي قامت به المجموعات الفدائية الفلسطينية السرية. وشنت إسرائيل هجومها الواسع في ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧، ودشن هذا الحدث الجسيم مرحلة جديدة في التاريخ الأردني، إذ تعزز الكيان الأردني وتحدد بشكل أكثر قوة مما سبق.

وتعرضت الضفة الشرقية إلى طوفان بشري أضاف عبئاً كبيراً جديداً على القدرات المالية والبنية التحتية والإدارات الأردنية، وتغير الميزان الديموغرافي، ونُقلت العلاقات الأردنية - الفلسطينية نقلة نوعية وكمية نظراً إلى وقوع كامل التراب الفلسطيني تحت الاحتلال. وتمثل الانعكاس الأهم الذي تولد عن هزيمة ١٩٦٧ في نمو حركة المقاومة الفلسطينية، إذ خلقت الحرب الأوضاع الملائمة للتطور السريع لهذه الحركة.

وأقيمت المخيمات الفلسطينية على مرحلتين واكبتا موجتي اللجوء والنزوح، فقد أقيمت مخيمات النزوح بعيداً عن المركز، وعن

جوار المخيمات ومراكز الكفاح المسلح قرب
وسط المدينة على كيفية "تعريف" المكان
وتحديد مناطق النفوذ. وهذا بالتوازي مع
محاولات إعادة رسم حدود السيطرة على
الأرض، فمثلاً جرى الاحتفال بنصر الجيش

الفلسطينيين. وتجلى هذا الأمر فراغياً في
المدينة. فمن جهة، كان للفدائي الحضور
الطاغي في شوارع وسط البلد على صعيدين:
الحضور الشعبي والحضور السلطوي
والسياسي، كما أنه، من جهة أخرى، انعكس



لقطات تُظهر عناصر من إحدى التنظيمات الفلسطينية المسلحة في شارع فيصل في وسط البلد.
المصدر: السلسلة الوثائقية "حكاية ثورة" - قناة "الجزيرة"

على معاقل الفدائيين في المدن والريف، تمكنت حركة المقاومة من الاحتفاظ بأغلبية المخيمات في أهم مدينتين أردنيتين: عمّان وإربد، الأمر الذي جعل آخر أيام الصدام في عمّان - هذا قبل زهاب المقاومة إلى جرش - متركزة بطبيعة الحال حول المخيمات التي ليست بعيدة عن وسط البلد وعن القصور الملكية في رعدان.

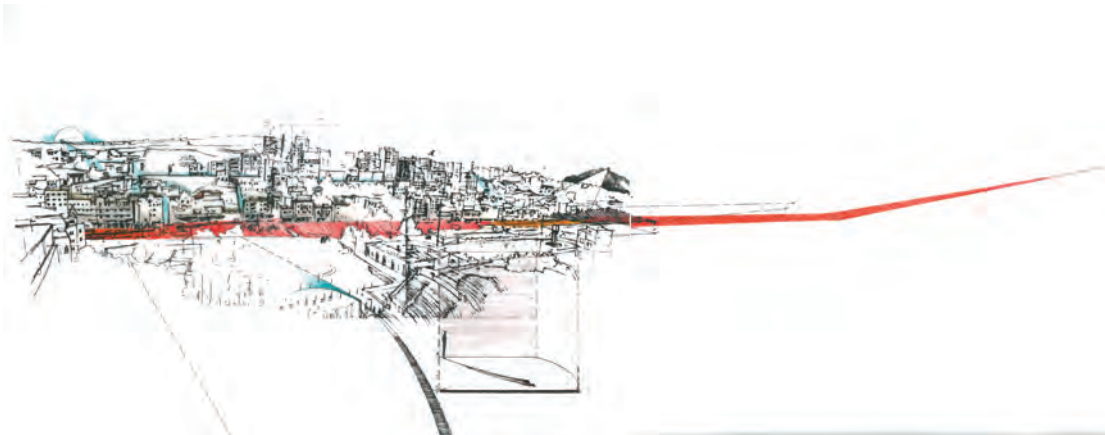
وثبت النظام نفسه بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن، واقتصر الوجود الفلسطيني السياسي في عمّان بعد "أيلول الأسود" على أدوار إدارية وخدمائية في عيادات ومستشفيات وجمعيات تعاونية، وعلى عدد من البرامج الاجتماعية.

ودخل هذا الجزء من المدينة (وسط البلد وما حولها) في سبات في علاقته مع بقية المدينة، وتهدأ بالتدريج لفصل فضائي واجتماعي - اقتصادي.

الأردني على العدو الإسرائيلي في معركة الكرامة في الساحة الهاشمية (قبل تسميتها بذلك رسمياً في سنة ١٩٨٦) بعرض المكاسب المادية من المعركة في إطار رد الاعتبار إلى الجيش ولفت النظر إلى دوره في المعركة من جهة، وإعادة ترسيم الحدود المكانية ورمزيتها من جهة أخرى. فموقع الساحة يجسد عودة الحكم الهاشمي إلى وسط البلد، وخصوصاً بعلاقتها مع جبل القصور الذي كان موقعاً رمزياً للحكم بعد بناء قصر رعدان.

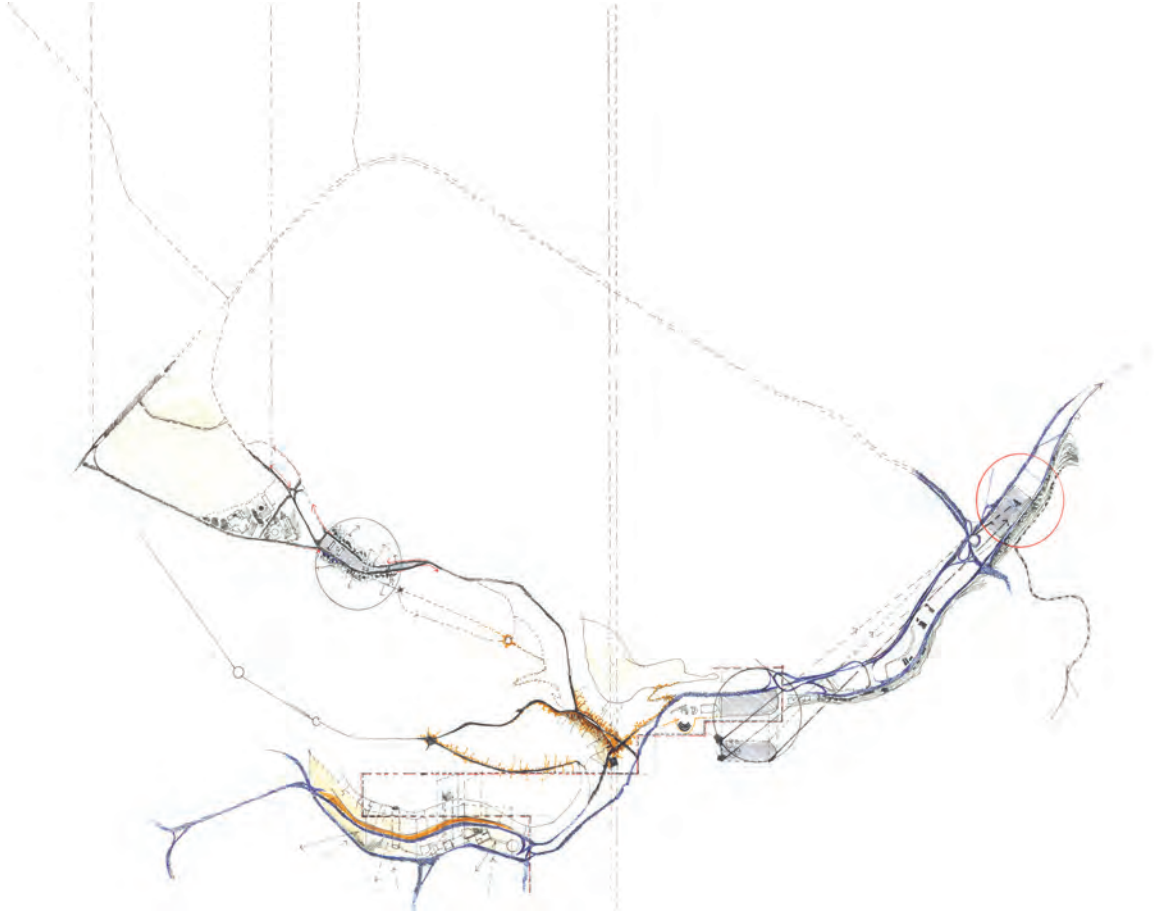
وظلت التناقضات الأردنية - الفلسطينية الخفية تتعمق وتزداد توتراً خلال سنة ١٩٦٩ بسبب استمرار نمو حركة المقاومة أساساً، إذ امتدت منظماتها وخدماتها إلى أغلبية المناطق، وظهرت كصاحبة القرار في المراكز السكنية الفلسطينية.

وبعد ١٠ أيام من القتال الضاري في سنة ١٩٧٠، وبعد الهجوم الذي شنّه الجيش الأردني



عادت الساحة الهاشمية لتعلن السلطة في ثمانينيات القرن الماضي، فارضة مقارنة لا يمكن الهرب منها بين الفضاء العام والفضاء الحاكم: الساحة الهاشمية والقصور الملكية، محاكية أو متماهية في العلاقة بين المدرج الروماني (agora) والمعبد في جبل القلعة.

(الرسم التوضيحي أصلاً: ٨٠ سم x ٣٠ سم، حبر على ورق، ٢٠١١).



فنادق، مقاهٍ، مكاتب سفريات، مطاعم وجبات سريعة وسوق أسبوعية مفتوحة، كلها شكلت نسيجاً تكوّن حول حركة وصول الناس إلى العبدلي، وهو نسيج نتج كحاجة ملحة إلى المكان نفسه. وهذا النسيج يتأثر بشكل مباشر بهذه التنمية، ويذكر بالنسيج المتكون حول ساحة فيصل ورغدان.

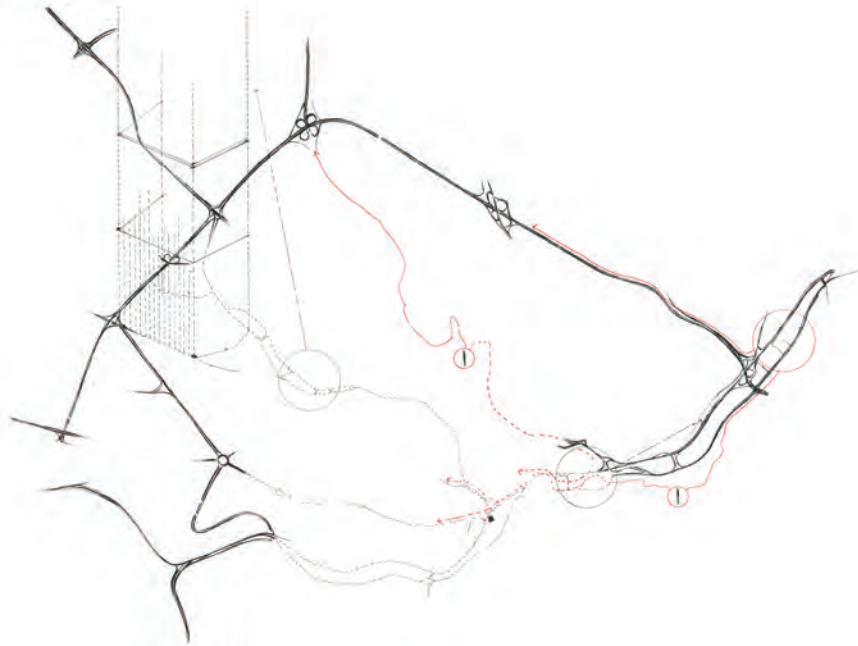
هذا المكان - وسط البلد أو العبدلي - منتج اجتماعي، ومنظومة ترابطية بين ما هو خاص وما هو عام، بين الحركة والسكون. الفراغ يتحول إلى شبكات من الحركة والوظائف، ووحده هذا النوع من الزخم هو القادر على أن ينطوي على كثير من الفرص والمقومات، وهو فراغ تم نحته بحركة الناس اليومية؛ فراغ يخلق بين جبلين. مئات من البيوت المعلقة وآلاف المستخدمين اليوميين. ميكانيكية عفوية وفرت ربطاً وامتداداً لجزء من المدينة الذي يُعدّ هو تاريخها الحديث، ميكانيكية هيأت فرصاً للارتجال والتفاعل.

ملابس مستعملة، خضار، أثاث مستعمل: سوق مفتوحة بدأت بالتشكل في سبعينيات القرن الماضي أسبوعياً، وتحركت حول منطقة العبدلي، إلى أن استقرت في جزء خال من موقف باصات العبدلي: سوق الجمعة. انتقل موقف الباصات إلى طبربور، لكن السوق استمرت، وفي الحقيقة ليس من الواضح ماذا سيستبدل الموقف ومتى...

(الخريطة أصلاً: ١١٠ سم x ٧٠ سم، حبر على ورق، ٢٠١١).

خطوط المواصلات العامة ومواقفها، نجد أنها تتركز في الجهة الشرقية من المدينة، وتجعل من الحركة اليومية بمثابة تدفق بين ثلاث نقاط وصول وانطلاق من المدينة وإليها عبر محاور أساسية: العبدلي واصلاً الوسط بالغرب عبر شارع السلط، إلى شارع قريش ورغدان، ثم منتشرة عبر الجبال المجاورة.

هذا الفصل الفضائي الاجتماعي الاقتصادي الذي نتج من أنماط متنوعة للنمو والبناء وهجران للأماكن من جهة، والزحف العمراني من جهة أخرى، شكّل ثغرات في النسيج العمراني والحركة في المدينة وتعدداً للمراكز، علاوة على اختلاف كبير في أنماط الحركة بين شرقي المدينة وغربها. فإذا تبعنا



”وسط مدينة جديد“ هو شعار التنمية الذي تم الاتفاق عليه بين ”موارد“ (مؤسسة استثمار الموارد الوطنية) وهي مؤسسة مملوكة من الدولة، و”سعودي أوجيه“ (مستثمر) لتحويل ٤٣ هكتاراً من الأراضي العسكرية الواقعة فوق موقف باصات العبدلي بمحاذاة البرلمان، مجلس الأمة، والمحكمة، وعلى امتداد مركز البنوك في الشميساني، إلى مشروع استثماري يُعدّ الأول من نوعه في الأردن؛ مشروع يطرح صورة تكاملية وشمولية للحياة اليومية: سكن، عمل، تسوق... صيغة مشتقة تماماً من قدرة استيعاب المدينة على الاستهلاك. صيغة تستهدف نوعاً معيناً من المستثمر ومن المستخدم أيضاً مشكلة تهيديداً على ”ديموغرافية“ المنطقة وعلى المستخدم الحالي للمحيط، مهددة مستقبله القريب، ومؤكدة الفصل الواضح بين مختلف طبقات المجتمع وبين المناطق المتعددة في عمان، ومن أولى هذه العلامات: نقل باصات العبدلي إلى الطرف الآخر من المدينة - طبربور.

ومع انتقال موقف باصات العبدلي، ورغدان إلى المحطة (حتى بعد تطوير موقف رغدان كما ذُكر سابقاً وإعادة تفعيله) فإن علاقة الناس وحركتهم في المدينة تغيرتا جزاء تغيير خريطة الحركة وتوزيع الخدمات، علاوة على تغير علاقة مستخدمي المواصلات العامة بوسط البلد. فعودة رأس المال مع السلطة التي تعاني نقصاً في الشرعية الشعبية، المتمثلة مكانياً في موقع أمانة عمان الكبرى الجديد، وتجريد وسط البلد من مستخدميه ”المجاورين“، يستأصلانه من سياقه التاريخي المتعلق مباشرة بموقعه ومستخدميه.

(الخريطة أصلاً: ١١٠ سم X ٧٠ سم، حبر على ورق، ٢٠١١).

ثلاثة مشاريع تنموية. وهذه المشاريع التنموية السياحية، ومشاريع التأهيل الحضري تؤكد اهتمامها فقط بفكرة "التراث" بطريقة مجمّدة في الفضاء المادي، معلنة سلطتها ومتفادية التعامل مع الفضاء كمنتج اجتماعي وتاريخي، ففتحول المدينة بالتدرّج إلى حقل من الفرص، صورة غير حقيقية تستفز مزيداً من التهميش والترحيل، وتزيد في الفصل الفضائي / الاجتماعي في المدينة. إن شكل عمّان الحالي ما هو إلا تراكم لصراع

هجران جديد في العودة إلى وسط

عمّان

تقع الساحة الهاشمية وموقف رغدان في الطرف الشرقي لوسط البلد، بينما يقع مبنى الأمانة ومشروع رأس العين في الطرف الغربي لوسط البلد، ويقع موقف باصات العبدلي ومشروع العبدلي، الجاري العمل به حالياً، على امتداد شارع السلط. وهذا المثلث الذي يحاصر وسط البلد يتعلق بـ "العودة" إلى المدينة من خلال



إن الفصل بين عمّان "الشرقية" و"الغربية" هو فصل اجتماعي - اقتصادي ذو بعد تاريخي، فضلاً عن اختلاف كبير في أنماط الحركة بين الشرق والغرب. فإذا تبعنا خطوط المواصلات العامة ومواقفها، نجد أنها تتركز في الجهة الشرقية من المدينة. وهنا نرى بوضوح كيف تم استبعاد مستخدمي محطة رغدان (القديمة) للحافلات، والتي تم نقلها بعيداً عن قلب المدينة الحي إلى موقف المحطة.

(الخريطة أصلاً: ١١٠ سم x ٧٠ سم، حبر على ورق، ٢٠١١).

الضخمة التي تُسقط معاني معينة عليها.
وهذه العودة ما هي إلا استمرار لهذا
"الهجران"، إنما بشكل آخر له، وتنعكس هذه
المشاريع مباشرة على أنماط الحركة وعلاقتها
بوسط البلد. ■

على الأماكن وتمثيلها، وهو ما نراه واضحاً في
هجران السلطة لأماكن معينة، أو حصر أهميتها
وأثرها في محاولة لطمس أو تفادي تاريخ أو
وقائع ما. ومن ناحية أخرى، فإن العودة إلى
هذه الأماكن تأخذ شكل المشاريع التنموية



لقد أدت السرعة والسلطة معاً، إلى فصل واضح بين مئات المارة يومياً، وبين تلك الجبال حيث المدينة تلاشت بالفعل.

فغير الساحات الفارغة، والشوارع الممتدة، وانتشار مراكز التسوق فيها، تعاني عمان جزء التناقضات في النسب، الغرور التمثيل والتناقضات؛ الزائل - الدائم، المتخيل - الحقيقي، الريفي - المتضخم والحق في المدينة الذي يتلاشى في عقول سكانها حتى قبل أن يتلاشى في ذهن المستثمر والمخطط وأصحاب القرار.
(الخريطة أصلاً: ١١٠ سم x ٧٠ سم، حبر على ورق، ٢٠١١).

المصادر

- ١ أو JICA، وهي كالة تعمل على تشجيع التعاون الدولي في المجالات الاجتماعية والاقتصادية، وتطويرها في الدول النامية.
- ٢ مخيم فلسطيني غير رسمي.
- ٣ Cardo: شارع رئيسي شمالي - جنوبي يُعد محوراً في أسس تنظيم المدن الرومانية، وعادة ما تنشط حوله الأنشطة الاقتصادية؛ Decumanus: شارع شرقي - غربي هو أقرب إلى الشوارع الفرعية. وعادة ما تقع الساحة (Forum) على تقاطع الشارعين.
- ٤ السير جون باغوت المعروف باسم غلوب باشا ولقبه أبو حنيك (١٨٩٧ - ١٩٨٦): ضابط بريطاني عُرف بقيادته الجيش الأردني خلال الفترة ١٩٣٩ - ١٩٥٦.
- ٥ عبد الرحمن منيف، "سيرة مدينة" (بيروت: المركز الثقافي العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦)، ص ٣٩٠.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات من أوسلو إلى خريطة الطريق

٣

الطريق إلى خريطة الطريق

٢٠٠٠ - ٢٠٠٦

أحمد قريع (أبو علاء)

٥٢٢ صفحة ١٥ دولاراً (تجليداً عادياً)

٢٠ دولاراً (تجليداً فنياً)